الخلدونية وقضايا الدولة والاجتماع البشري

كان الاختلاف والتباين في عصر ابن خلدون وفي المجتمعات العربية، أوضح ما يكون بين حياة البادية وحياة المدينة، "فابن خلدون الذي اعتزم دراسة العمران البشري في عصره، قد ركز اهتمامه على هذه الظاهرة: ظاهرة الانقسام العمران جملة إلى عمران بدوي وعمران حضري. بل يمكن القول بصفة عامة إن نظرية ابن خلدون في التاريخ الاسلامي، قائمة أساسا على دراسة هاذين النوعين من العمران، باعتبارهما الاطار الذي يتحرك فيه التاريخ"[1] . فلقد عاش ابن خلدون مدة تجاوزت الخمسة عشر سنة بين قصور الملوك والأمراء، وتولى المراتب والمناصب مما جعله يلمس عن كثب أسلوب حياة الحضارة أو المدينة، وعاش أيضا مدة تزيد عن عشر سنين قبل كتابته المقدمة بين أحضان العمران البدوي متنقلا بين القبائل لاجئا تارة، أو مكلفا بمهمة تارة أخرى، فتعرف هنا وعن كثب طبائع البدو وأخلاقهم وأسلوب حياتهم، كل هذا فتح لبن خلدون فرصة التعرف وملاحظة الفرق الشاسع بين حياة العواصم والحكام وحياة الطبقة الارستقراطية الحاكمة، وبين حياة أهل البادية والقبيلة، "فاكتشف وهو الذي يعرف أن البسيط هو اصل للمركب، والجزء أسبق من الكل بفضل ثقافته المنطقية الواسعة، واكتشف أن العمران البدوي أصل للعمران الحضري ومادة له، واكتشف أيضا، ولو أنه لم يقل ذلك بصراحة، أن أساس الاضطراب الذي عرفه عصره، هو ذلك التناقض الواسع بين "خشونة البداوة ورقة الحضارة" وهو التناقض الذي تبرزه لنا تحليلات المقدمة باعتباره العامل الأساسي في تحريك الأحداث التي عرفتها عصور التاريخ الإسلامي إلى عهده"[2] .

1. نظرية العصبية لدى ابن خلدون:

ينطلق ابن خلدون في حديثه عن العصبية وأساسها ودورها في منحي الحياة الاجتماعية وفي حركة التاريخ من فكرة "الوازع"، الذي جعله في نزلة بين منزلتي "اجتماعية الانسان وأن الانسان مدني بطبعه، وبين الطبع العدواني لدي البشر، فقال: "أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض، فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه، امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصده وازع"[3] .

---

1 محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، ص 141.

2 محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، ص 63.

3 ابن خلدون، المقدمة، 422.

يمكن تعريف العصبية عند ابن خلدون بأنها رابطة اجتماعية سيكولوجية –شعورية ولا شعورية- تربط أفراد جماعة معينة قائمة على القرابة المادية أو المعنوية، ربطا مستمرا يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو كجماعة. فالعصبية ظاهرة خاصة بالبدو لأن أحياءهم مفتوحة (عكس المدن التي تعتمد على باني مشيدة بطريقة دفاعية)، فتحتاج في الدفاع عنها إلى تكتل وتعاضد أفرادها. وقد تكون تكافلية أو اقتصادية أو دينية.

هذا وبنظر ابن خلدون هناك عصبية طبيعية لابد منها في الحماية والمطالبة والمواجهة، أما العصبية المستندة فقط إلى التعصب للأنساب والاعتداد بها فهي (عصبية جاهلية) لا فائدة فيها مطلقا، وهي المقصودة بذم الشارع للعصبية.

وبالعصبية يحصل التكافل والتماسك والتعاون داخل المجتمع ويتوفر الأمن والحصانة من أي اعتداء أو خطر خارجي كما يقول ابن خلدون "... بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم ... وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم..."[4]، وبالتالي هي الطريقة المثلى لتأسيس الملك والدولة، والملك لا يقوم أصلا بغير عصبية فهو يقوى ويضعف بها.

2. تطور الدولة واختلاف أحوالها:

إذن وحسب ابن خلدون فإن حركة التاريخ هي حركة انتقال مستمرة من البداوة إلى الحضارة، لكن بمسار أقرب إلى الشكل الدائري منه إلى الخط المستقيم، لكنه يتم عبر الدولة، هذه الدولة التي في نظره تحمل معها منذ نشأتها بذور انهيارها وزوالها، وهذا هو حال كل الدول تنشأ وتزول لتحل محلها دول أخرى تلاقي نفس المصير في حركة تاريخية تسير بشكل تطوري لولبي.

ويعرف ابن خلدون الدولة بأنها: "كائن حي له طبيعته الخاصة، ويحكمها قانون السببية، وهي مؤسسة بشرية طبيعية وضرورية، وهي أيضا وحدة سياسية واجتماعية لا يمكن أن تقوم الحضارة إلا بها". وفي الاصطلاح القديم هي: "القوة والسيطرة والسلطان".

4 ابن خلدون، المقدمة، ص 480.

كما أن الدولة في اصطلاح ابن خلدون هي على العموم "الامتداد الزماني والمكاني لحكم عصبية ما"[5].

- فمن حيث الامتداد في المكان تكون الدولة عامة أو خاصة:

-الدولة العامة هي مجموع المناطق والأقاليم التي تجري عليها سلطة العصبية الحاكمة سواء كانت هذه السلطة فعلية أم إسمية فقط.

-والدولة الخاصة هي الولاية أو الاقليم الذي استقل به الوالي خارجا عن السلطة المركزية.

- أما من حيث الامتداد في الزمان فإن الدولة إما كلية وإما شخصية:

-الدولة الكلية هي مدة حكم عصبية من العصبيات، التي يتعاقب فيها الملوك واحدا بعد الآخر. إنها حكم أسرة معينة منذ استلامها الحكم إلى يوم خروجه منها (الدولة الأموية العباسية...).

-الدولة الشخصية هي مدة حكم شخص واحد ن أشخاص الدولة الكلية، مثل دولة المأمون، دولة عبد المؤمن..الخ.

كما نجد ابن خلدون يوضح أن تطور الدولة يكون على مستويين:

المستوى الأول: يتعلق بالشخص يحكم (الملك) ويكون فيه تطور الدولة بتعاقب أربعة أباء أي أربعة ملوك وهو ما يوازي 120 سنة.

والمستوى الثاني: مرتبط بالجماعة التي أسست الدولة بعصبيتها وهي الثلاثة أجيال من أهل العصبية تبدأ من الجيل المؤسس للدولة ويحدد عمر الشخص 40 سنة.

3. أطوار الدولة من النشأة إلى الزوال:

يرى ابن خلدون أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه، ويبين ذلك من خلال وصفه بمراحل قيام الدولة وتطورها من مرحلة البداوة إلى مرحلة الحضارة، ويفسر أيضا كيف تنشأ الدولة ثم تزول بالاعتماد على مفهوم العصبية، فيما يحدد هذه الأطوار الخمسة لقيام وزوال الدولة وهي كالتالي:

الطور الأول: الاستيلاء على الملك من أيدي الدولة أو الملوك السابقين بالعصبية الغالبة.

5 محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، ص 290.

الطور الثاني: الانفراد بالحكم والاستبداد من طرف الملك على الرعية وكبح نفوذهم في المشاركة والمساهمة في الملك.

الطور الثالث: هو طور الفراغ وفيه يصبح الحاكم مستقلا برأيه تماما، ويعمل على جمع الثروات وامتلاك العقارات من خلال الجباية وفرض الضرائب والاستلاب بالقوة.

الطور الرابع: يسميه بطور القنوع والمسالمة، حيث يقلد الملك أسلافه ويفتح سبل السلام للدول وللملوك المجاورة له.

الطور الخامس: طور الاسراف واالتبذير، فيه يتم ضياع وخراب ماضي الدولة التي بناها الاسلاف أو المؤسسون الأوائل، ويميل الملك فيه إلى إنفاق الأموال على الترف والسهرات والشهوات، فتنقطع فيه الصلة بينه وبين الرعية ما يدفعهم إلى خذلانه وعدم نصرته وهنا يزول أساس العصبية "وتحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه ولا يكون لها معه برء إلا أن تنقرض"[6].

---

6 ابن خلدون، المقدمة، ص 544.